
سورة يونس



بسم الله الرحمن الرحيم

وتبدأ سورة يونس[1] بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن، ولكن المختلف فيه: أهي آية من كل سورة؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوائل مائة وثلاث عشرة سورة، ومرة واحدة في صلب سورة النمل:

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل]

إذن: فـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة النمل بعض آية من القرآن، وآية من السورة، ومن قال من العلماء: إنها آية من كل سورة؛ يجهر بها في الصلاة، ويسميها الآية رقم واحد، والآية التي تأتي بعدها برقم اثنين. ومن قال: إنها نزلت للفصل بين السور، نقول له: إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور؛ فما كانت لتأتي في سورة الفاتحة؛ لأن الفاتحة أول سور القرآن. ولكن صاحب هذا الرأي، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تبركاً.

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة، وقد حسبوها كذلك في طباعة المصاحف، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي الآية الثانية، ولكن في بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات.
وبعض آياتها مدنية على اختلاف بين العلماء، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هي آيات: ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ..(٩٤)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾. وقال الكلبي: إنها مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ... (٤٠)﴾ [يونس]. ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد.

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا: إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وينبت لك الحق الزرع . صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلَّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) ﴾ [الواقعة]

وهناك أفعال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الزبان [1] البسيط ؛ ليكوِّن الجذور، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو الزبان البسيط التافه فى رؤية الإنسان.

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى المياه ، وهى قدرة هائلة

(١) الزبان : أصله فى اللغة زبانى العقرب أى طرفا قرنيه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ز ب ن).

لدرجة أنهم فى الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً فى الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون فى هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالمياه ينفجر الجبل.

وأنت حين تضع الحبة فى الأرض ، فالحبة تخرج نبتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور التى تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتى اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر فى الأرض . وتَرِقّ فلقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرَار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهى من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً.

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتى لتزرع وتقول : باسم الله أزرعك ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذى سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شىء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذى خلقك ؛ لأنك قد تأتى لرفع الشىء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد.

إذن : فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فَادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذى سخَّر لك كل شىء.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1] .

(١) الأبتر : الأقطع ، وهى صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣) ﴾ [الكوثر] أى المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ فيه ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام .

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن ينفعل لك شيء ، فكل شيء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن : فابدأ كل شيء باسم الله . وفي أعرافنا السياسية يقول القاضي لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلي» أي : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور .

إذن : حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه .

وساعة تقبل على أي عمل وتتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشيء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شيء ، تكون قد بَرِئت من حَولكَ ومن قوتك .

وهنا يقول الحق : ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وهنا الرحمة بالخلق ؛ ليرفع عن العاصي الحرج في أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذي عصاه ، ويُذكّرك الحق بأنه ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى في سورة يونس :

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾

و﴿الٓر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓ﴾ في أول سورة آل عمران ، وفي أول سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهنا ﴿الٓر﴾ في أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾و ﴿الٓر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أنا اسمي الشعراوي صحيح ، والمسمَّى هو صورتي . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى في الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتي إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتي إلى الذهن المكان المحيّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أميّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾ وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد ﷺ أميّ لم يتعلم ، فمن الذى علّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت [1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر .
وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال :
١- أنها مما استأثر الله بعلمه .
٢- أنها دلالة على أسماء السور .
٣- أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد) .

من: رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ[1] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ①﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل :﴿طه﴾ . ﴿يسٓ﴾ . ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓر﴾ .

وثلاث سور تتفق فى الألف واللام . وتختلف فى " الميم والراء" . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس و ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يوسف . و﴿الٓر﴾ فى أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓر﴾ فى أول سورة الحجر .

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل : (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) - (الإصمات ، الإذلاق) . وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهى : الفاء ، الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء ويجمعها قولهم : « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهى « حروف جهرية » أى : فيها قوة فى النطق بها . انظر تفاصيل هذا فى كتاب « هداية القارى إلى تجويد كلام البارى » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفى (ص ٧٩ - ٩٣) غفر الله له ورحمه .

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الٓمٓصٓ﴾ فى أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿الٓمٓر﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢)﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان فى أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طه﴾ ، و﴿يسٓ﴾ . أما فى سورة النمل فهى تبدأ بـ ﴿طسٓ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتى خمسة حروف مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفى[1] . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم" فى القرآن فى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهى ألف وصل ، أى : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق]

---

(١) توقيفى أى : أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شىء فى القرآن من فواتح السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور فى المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة ، بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل .

(٢) وردت كلمة (باسم) فى القرآن ٤ مرات فى قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾[العلق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فى ثلاثة مواضع [الواقعة : ٧٤ ، ٩٦] ، و [الحاقة : ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات فى القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١)﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة فى بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية فى أولها .

ومثال آخر لو استعرضت فى القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة من غير ألف [1] ، وكلمة " البنات" نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [2] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم» من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أى : كما أمر الحق سبحانه [3] .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التى فى ختام أى سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت فى القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف فى قوله تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ تَبَـٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ... (١) ﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾[الأعراف] ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان (١) ، (١٠) ، (٦١)] ، [غافر(٦٤)] ، [الزخرف(٨٥)] .

(٢) وردت كلمة البنات فى القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَـٰتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾ [الطور] .

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون فى قواعد الرسم القرآنى ، وأن لهذا الرسم حكماً خفية تكلم فيها علماء . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [1] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [2] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [3] ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تنبنى على طريقة المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم " .

---

(١) عضين : أى : أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾ [الحجر] . ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

(٢) أى : أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم فى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ [الأنعام] .

(٣) الإظهار والإقلاب : حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين .

- أما الإظهار : فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى : التى مخرجها من الحلق وهى : الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء . عندها يجب الإظهار ، أى : إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف .

- أما الإقلاب : فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين ، فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغُنَّة ، ومثال هذا : ﴿ أَنْبِئُونِي ...(٣١) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] .

ونقـول لمثـل هذا القـائـل : لا ، إن حـروف القرآن التى بدئت بـهـا السـور يجـب أن ننـطقـهـا كـمـا هى ، فننطق « ألف» ثم نقف ، ونقرأ " لام" ثم نقف ، ونقـرأ "مـيـم" ثم نقف ؛ لأن هذه الحـروف جـاءت هكـذا ، وعلّمـها جبريل عليه السـلام لرسـول الله ﷺ هـكذا ، حتـى لا نقـول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمـة عند الله سـواء فـهمـتهـا أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأى هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك فى القرآن ، ولكن أسـمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى ﴿الٓمٓ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن فى القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿الٓمٓ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا فى القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿الٓمٓ﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[(١)] مع استراحة النفس له .

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٣) والدارقطنى فى سننه (١/ ١٩٩) .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا (١) نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى (٢) لـها الله ما جاء خبره فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه فى البحر ، طبعاً لنَ تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ...﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء : أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] . وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر بينهم ويكون سبباً لهلاكه وذهاب دولته .

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه : بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى : الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل .

وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ... ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوِّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿الٓمٓ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذى يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك فى قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله فى اللفظ ؛ فليس كل قارىء للقرآن متخصصاً فى اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمى ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحًا ، أو النهر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر . وساحل اليم : شاطئه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر" ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر [1] يقول :

* ألا هُبِّى بِصحْنك فَاصْبحينا *

ويقول :

ألا لايَجْهَلنْ أحدٌ علَيْنا فَنجْهَل فَوقَ جَهْل الجَاهلينَا [2]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام فى أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت [3] .

(١) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفى نحو عام ٤٠ قبل الهجرة . من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤) .

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهى من بحر الوافر .

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هى : التمنى والاستفهام عن النفى والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان بـ ﴿الٓمٓ﴾ ؛ حتى نسمع ، ثم تأتى الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع فى أن نفهم أن النبى الأمى لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معانى كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفته، وصفته لا تتناهى فى الكمال، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له[1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذى بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه. ويقول لهم: هاتوا مثيلاً له ،ولن تستطيعوا[2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم فى الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا.

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها فى لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التى تبنى منها

---

(١) يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف] ، ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] .

(٢) وفى هذا يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق [1] الذى جاءت به الحروف ، فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها [2] .

---

(١) النسق من كل شىء : ما كان على طريقة نظام واحد .

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : أباريق ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أسفار ، الجبت . وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين : حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وعبرية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعي وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا ... (٢) ﴾ [يوسف] .

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآنا عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق » .

لذلك شاء الحق أن يأتى القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التى فى أوائل بعض السور وقبلوها ، والحق سبحانه يقول :

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [يونس]

و﴿تلك﴾ : إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هى التى تشير إلى شىء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهى حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهى مؤنثة ، و«الكاف» فى ﴿تلك﴾ : للمخاطب ، وهو محمد ﷺ. فالله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق :

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ (١) مِن رَّبِّكَ ... (٣٢) ﴾ [القصص]

و«ذانك» : إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ... (١٢) ﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ... (٣٧) ﴾ [يوسف]

(١) البرهان : الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوى الواضح .

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[١].

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت: اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتى بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ...(٣٢) ﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣) ﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فالـ «ت» إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ .

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية[٢] هى الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة الصيت عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة لمن تشير إليه ، والكاف لمن تخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين :
الأول : أن أسماء الإشارة يراعى فى لفظها ما تشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً .
الثانى : أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى فى لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً .
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهى إذن حرف للخطاب لا للمخاطب ، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤) .

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة ؛ لأنها علامة على صدق الرسول ، والآية العبرة الدالة على العظمة ، والآية من القرآن سميت آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] أى : معجزة دالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .. (١١٨) ﴾ [البقرة] أى : معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات كونية يرجع إليها فى كتاب الله ، وتجمع الآية على آى وآيات ، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته .

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول: إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة.

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة. وتطلق الآيات إطلاقات متعددة: فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ الله بها رسله ؛ ليثبت صدقهم.

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [1] (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق:

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ [2] مِنْهُ النَّهَارَ ... (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن: فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن.

إذن: فالآيات تطلق على ثلاثة أمور: الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها.

---

(١) قالها آل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

(٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس . ويسلخ الله النهار من الليل أى : يخرجه منه .

وهنا في قوله الحق : ﴿الر تلك آيات الكتاب﴾ المراد بها : الآيات القرآنية [1]، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزِّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد.

وقوله: ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الحكيم﴾ معناها : الذى يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرّة.

ولله المثل الأعلى أقول: إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية.

إذن: فهذه حكمة؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذى قد يأتى منه أثر ضار، بل يكتب معه دواء آخر يخفّف من ضرره، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى.

وفى أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع، واخترعوا مادة اسمها «د. د. ت» لمقاومة الحشرات، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضى على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

(١) المتعارف عليه عند النحويين أن اللام فى تلك للبعد ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن . وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد ، وأن تلك بمعنى هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم وصف للقرآن ، دليل هذا : ﴿الر كتاب أحكمت آياته ... (١)﴾[هود] .

الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة. قد نأخذ منه ظاهرَ النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع.

إذن: فالحكمة [1] تعنى : أن تضع الشيء فى موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد.

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح. فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتى منه كل نفع ، ولن يأتى لنا أى ضرر ، وضربنا المثل فى المعطيات التى أعطاها الحق لنا فى الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها. وهو القائل:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ... (٧) ﴾

[النحل]

أى: أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

---

(١) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل . قال تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] والحكيم : ذو الحكمة والرشاد الذى يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم ، والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿ فاعلموا أنَّ الله عزيز حكيم ..(٢٠٩) ﴾ [البقرة] .

إذن: فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما، فهى اختراع بلا حكمة، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات، وقدرتها على حمل البضائع، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى: وضع الشيء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق: ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل، ومرة بصيغة فعيل[1]، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك.

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا؛ ليبين وجه الحق فيها، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله. ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم، وسبحانه القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا، وهو حاكم فاصل فيها[2].

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الماضى الثلاثى المتصرف، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم، فيجب التصرف بتغيير صيغة «فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن نقول: كريم، بخيل. ومن هذا أيضاً حكيم. فهى صفة لها ثبوت ودوام فى حق الله، ولذلك غيرت الصيغة من «فاعل» إلى «فعيل». انظر: (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢).

(٢) القرآن حكيم؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين.

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم فى قمة العقيدة «لا إله إلا الله » ، وهى شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ...(١٨) ﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن فى هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق فى قمة العقائد . وهو حاكم فى الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً فى الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم فى الأخلاق .

إذن : «حاكم» تعنى ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة .

و« حكيم » : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتى الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً فى أمر القمة التى اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل فى هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيَّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛أنتم كذابون ، بل هو إله

واحد ، وهذا أول حكم فى قضية القمة .

وما دام الحكم فى قضية القمة قد صح ؛ إذن : فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعال ، فقد يختلف الناس فى تقييمهم لفعل واحد . فهذا يقول : فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ؛ فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1] .

إذن : فالقرآن حكم فى العقائد وفى الأفعال وفى ذوات الأشياء حلاً وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً فى قضية هامة تلى قضية الحكم فى قمة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم فى هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول . فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . . ﴾ (٢١٣) [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى : أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه :

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شىء فى الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

---

(١) الشىء العجيب : غير المألوف للناس ، والآدمى إنما يتعجب من الشىء إذا عظم موقعه عنده ، وخفى عليه سببه . وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها ، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا ، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين ، أما القضايا فمنها :

١ - قضية توحيد الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ [ص]

٢ - قضية إرسال رجل منهم أى : من البشر ، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... (٤) ﴾ [ص]

٣ - قضية البعث ، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (٥) ﴾ [الرعد] .